# ملاحظاتٌ يتأكّلها الغضبُ لحظةَ المجزرة

□ موفّق نيربيّة

أعاد العدوانُ الإسرائيليّ على غزّة جميعَ المقولات القديمة إلى الواجهة، ما صحّ منها وما لم يصحّ. ومرةً أخرى، تَرْجع هتافاتُ الانتصار لتغمرَ الأجواء، كما حدث في كلّ حربٍ سابقة، بما في ذلك هزيمةُ حزيران نفسُها. وينتظر المحلِّلون والكتّابُ هدوءَ العاصفة حتى يُدْلوا بأفكارهم، التي لن تكون أقلَّ سوداويّةً.

❖ ❖ ❖

تَرْجع مفاهيمُ «النهضة» و«الوطنيّة» و«التحرّر» و«الهويّة» و«التقدّم» إلى مؤخّرة العقل أو إلى مقدّمته، وكلُّها في أجواء غزّة وأزقّتها المزدحمة.

فهنالك محاولةٌ أولى للنهضة مُتّفقٌ عليها، فيها من العوامل الإكزوتيكيّة ما كان يمكن أن يكفيها أو يلغّمها: من غربة محمد علي، إلى استيراده للتعليم والنُّظُم والتقنيّات والأسلحة. وفيها بسماركيّةٌ لم تستطعْ فرضَ برنامجها ومقاومةَ العالم والعثمانيين في الوقت نفسه، لكنّ بقاياها وحدها كانت إرثًا حميدًا لمن جاء بعدها. وهناك محاولةٌ ثانيةٌ غيرُ مُتّفق عليها بحجم الأولى، ترتبط باسم عبد الناصر؛ ولعلّ من ميزاتها المختلفة: ارتباطَها بالهويّة العربيّة ـ القوميّة حكّامًا وشعوبًا، وعمقَها الاجتماعيّ، وتآلفَها مع العالم ربّما أكثرَ من تآلفها مع بنى الحكم العربيّة المعاصرة لها. والمحاولتان كلتاهما نجحتا في أشياء، وفشلتا في أشياء، وتداخلتا مع مشاريع أخرى، تعايشتْ معهما أو سبقتْهما أو لحقتْ بهما.

فبين المحاولتين كان الاستعمارُ، والتحديثُ من طريقه، حيث تقدَّمَ مشروعٌ ليبراليٌّ متوازٍ مع ظهور النزعة الوطنيّة (القُطْريّة) ـ التحرريّة. ولم يستطع هذا المشروع النجاح بالطبع ـ لضعف مقوّماته الأصيلة من جهة، ولغلبة الحركة الموازية القويّة من جهةٍ أخرى ـ بل اندفع خطوةً أخرى باتّجاهٍ قوميّ أشدّ طموحًا ومخيّلةً.

وحين أنهت هزيمةُ حزيران المحاولةَ الثانيةَ، التي قاومتْ قليلاً بمزيد من الجنوح إلى اليسار مع بيان ١١ مارس الناصريّ، ومع بيانات حرب التحرير الشعبيّة في سوريا والجزائر، تقدّمت الليبراليّةُ من جديد، بثوبٍ أو أثوابٍ جديدة... أو إنها لم تحظَ بليبراليّتها إلاّ في الفترة الأولى، وبتداخلٍ شديدٍ مع الديكتاتوريّة، أَفْسح لها طريقًا مفتوحًا ومُعبّدًا.

إذنْ، كانت هنالك محاولةٌ للنهضة الأخرى من طريق الاستبداد الأحدث... أو هي ليست كذلك، ولا يَحْزنون! لكنّ ما بقي من تلك الفترة ليس ما خلّفتْه في غير مكانٍ وحسب، بل تنهيدات الترحّم على الرئيس الراحل صدّام حسين أيضًا، وذلك في لحظات الشدّة واليأس والحاجة والعوز.

لعلّ مفهومَ «النهضة» بذاته، وكما هو سائد، قد أصبح مضادّاً لها بذاتها، وعقبةً في طريق انفتاح الفكر على الجديد المنتج. ولم يعد مجْديًا إلاّ البناءُ على المتوفّر بين الأيدي، من «وطنيّات» كانت تُتّهم بالقُطْريّة، ودولٍ مدنيّةٍ حديثةٍ لا تتعارض مع التأسيس على الروابط القوميّة والمصالح المتبادلة، حاليّاً أو في المستقبل.

في ذلك السياق الأخير، حدثتْ تحوّلاتٌ مهمّةٌ للوعي القوميّ ـ العربي، وبرز الإسلامُ السياسيّ رابطةً تغْريه بشدّ أوتاره وزيادة حدّة أصواته وتُعمِّق من «عصبيّته» الخلدونيّة. فقد استمدّ الإسلامُ السياسيّ قوتَه الدافعةَ من فشل المحاولة النهضويّة الثانية، وهزيمةِ حزيران، ومن أجواء احتوائه وتقديم التسهيلات له من حكوماتٍ ما بعد تلك المحاولة، ثم من وهج ثورة الخمينيّ في إيران. وتقدَّمَ إلى أمام، وربّما إلى المقدّمة في بعض الحقول.

وهكذا فإنّه ما كان من أهل الفكر القوميّ، في ضعفهم وحاجتهم، إلاّ الاندفاعُ وتجريبُ التحالف مع الحركة الإسلاميّة، لمواجهة تشتّت حالتهم الشعبيّة وتراجعها، ومواجهةِ «الخارج» الذي يشكّل خطرًا رئيسًا. فأصبحت البنى التي تَجْمع بين مفهومَي «القوميّ» و«الإسلاميّ» شائعةً ومتنوّعةً تنوُّعَ دوافع مَنْ يعمل في حقلها: من البطالة السياسيّة، إلى محاولة تبريد النزعة الإسلاميّة، إلى لجم صراعات

القول بأن العدّ التصاعديّ للخسائر الإسرائيليّة قد بدأ، وإنّ الخسائر الغزّاويّة الهائلة قربانٌ للحريّة وطريق للفردوس، موافقةٌ طوعيّة على عنصريّة الإسرائيليين وبعض الغرب.

الأديان والمذاهب، فإلى تدعيم الحكّام حيث يَلْزم الأمر، وإلى مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة.. انتهاءً بتحرير فلسطين.

إذا كان صحيحًا أنّ الديانة بين الناس تشكّل أحدَ أهمّ اللواصق القوميّة الممكنة، فإنها ليست بديلاً لها (كلّها) في تأسيس الدولة المدنيّة الحديثة ووعيها الاجتماعيّ. وحين يستبدل القوميّون العروبةَ بالنزعة الدينيّة استبدالاً كاملاً، بعد مرحلةٍ سابقةٍ من الصراع معها بطريقة خاطئة، فإنهم يكونون قد تخلّوْا عن طموحاتهم، وتراجعوا إلى حيث يُرضيهم ويحفظُ كرامتَهم وآخرتَهم، من دون مسؤوليّةٍ اجتماعيّةٍ وشعبيّةٍ وتاريخيّة.

لقد ظهر حزبُ الله وحماس في الفترة المشار إليها، وظهرت المقاومةُ العراقيّة بعد ذلك بعقديْن. وهذه هي الظواهرُ الثلاث التي يمْكن احتسابُها بشكلٍ رئيسٍ على مواجهة شعوب المنطقة بالعنفِ ردّاً على العنف الخارجيّ، مع وجود عوامل داخليّة متفاوتة الحجم. لكنّ تلك الظواهر كلّها تنطبق عليها مقولةُ انسحاب العروبة إلى الدين، وانتقال القوميّة إلى حقل الإسلام السياسيّ وميدانِ نفوذه وسحرِه. وإذا كانت المذهبيّة دورًا محليّاً في العراق ولبنان، فهي ليست كذلك في فلسطين. ولا يعني ذلك أنّ التعارض السنّيّ ـ الشيعيّ، بمفهومه الإقليميّ والشامل، لا يلعب دورًا متفاوتًا، وإنْ في ما يخصّ حماس نفسَها. وتلك مفارقة تُضعف شعبيّةَ حماس، ولو بحدودٍ بسيطة، تَحدّ منها حرارةُ الصراع مع إسرائيل، وخروجُ عدوانيّتها عن كلّ المقاييس الإنسانيّة والسياسيّة، قبل النظر في مسّها لحقوق الشعب الفلسطيني.

❖ ❖ ❖

ومفهومُ المفارقة يأخذنا إلى نشأة حماس من بين الإخوان المسلمين، ثم إلى تشكيل كتائب القسّام بالتحديد. فلطالما كان نشاطُ «الإخوان» في غزّة قائمًا على المثلّث المعروف الذي يعطي لشموليّتهم شكلَها وطعمَها الخاصّيْن، وهو: الدعوةُ بين الناس (وإنْ أمكن على منابر الجوامع)، وتأسيسُ الجمعيّات والجماعات الخيريّة والإنسانيّة المتنوّعة، والعملُ السياسيّ. بل إنّ هذا المظهر الثالث للنشاط كان ضعيفًا قياسًا إلى غيره: فالقوم يؤْمنون ـ أو كانوا يؤْمنون ـ بأنّ إصلاحَ البشر خيرٌ وأبقى، وأنّ «التغييرَ» سوف يكون أسهلَ ما إنْ تمْلك الناسَ وتأسر قلوبَهم وتحرّك إرادتَهم.

لكنّ «حركة المقاومة الإسلاميّة» ظهرتْ مع الانتفاضة الأولى التي تمثّل غالبًا أهمَّ وأنجحَ ظواهر العمل السياسيّ العربيّ في النصف الثاني من القرن العشرين. وعملتْ حماس مع غيرها بفعّاليّةٍ ممتازةٍ وناجحة، جعلتْها تنتقل دراماتيكيّاً في الانتفاضة الثانية إلى مقدّمة المقاومة المسلّحة. واختصارًا للوقت والجهد فقد بادرتْ إلى القيام بعمليّات مختلفة تساعد على التجييش والتعبئة وتصعيدِ الصراع إلى المستوى الدينيّ، بل الوجوديّ.

غير أنّ ما قامت به حماس من احتكارٍ للسلطة بالعنف في غزّة، ثمّ من تطهيرٍ شموليّ للمؤسّسات القائمة التي كانت مكسبًا للفلسطينيين كلّهم، وحجبِها للآخر

بوسائل متعدّدة، ثم ميلِها إلى الظهور بمظهر «الفارس الوحيد» الذي لا يمشي شيءٌ ولا يتوقّفُ إلاّ إنْ تمّ التشاورُ معها: كلُّ ذلك باعثٌ على اليأس والإحباط ونسيان مسألة المستقبل. وتلك مسؤوليّةٌ لا ينبغي الاستهانةُ بها، وإنْ في ظلّ الإخلاص والبطولة والفداء.

لكننا لا ننسى أيضًا أنّ الحالة التي آلت إليها «فتح،» وقيادةُ منظّمة التحرير الفلسطينيّة، والسلطةُ الوطنيّةُ، هي المسؤولةُ بالأساس عمّا وصلتْ إليه الأحوال. وحين يَظْهر قادةٌ من تلك الهياكل ـ إنْ ظهروا ـ ويتكلّمون ببعض انتقادٍ لما يجري، فلا صدقيّةَ لكلامهم ما لم يبدؤوا بانتقاد أنفسهم وهجرانِ حالتهم البائسة. وحالتُهم تلك إنما هي نتيجةٌ للترهّل، ولسياسات الإعاشات والمحسوبيّات والرواتب والمنافع والفساد، فضلاً عن الاسترخاء أمام أيّ مكسبٍ وطنيّ بسيطٍ وسهلٍ ومحدود. لكنّ محرّكَها الأكبر هو الهيمنة على القرار من قِبل دائرةٍ ضيّقة، تؤثّر في تركيبها عواملُ مختلفةٌ: أوّلُها المالُ، ثم العلاقاتُ الخارجيّة المفصليّة، فالقوةُ الأمنيّةُ وما يتفرّع منها وذلك كلّه من دون أساسٍ كافٍ للادّعاء بوجود المؤسّساتيّة في الممارسة. وإذا كانت هنالك إشاراتٌ تتردّد بقوةٍ حول علاقة حماس ببعض القوى الإقليميّة، فإنه لا يمكن نفيُ مثل هذا الاتهام أيضًا عن تلك الأطراف، بغضّ النظر عن مضمونِ ما ينتج سياسيّاً من كلٍّ من هاتيْن العلاقتيْن.

إنّ عجزَ قيادات حركة «فتح» عن عقد مؤتمرها لفترةٍ طويلةٍ نتيجةٌ طبيعيّةٌ لهذه الحالة، ولن تستطيع أن تخرجَ منها إلاّ بهزّةٍ سياسيّةٍ وتنظيميّةٍ تكفي للتغلّب على قوة الكبح والتواني والخلود إلى المكاسب المضمونة العابرة. ولن تستطيع مجزرةُ غزّة أن تفعل شيئًا بهذا الخصوص كما يبدو، لأنّ شبكة العنكبوت ما زالت قادرة على منع الحركة من الحركة. هنا، ربما لا يختلف الوضعُ في إطار منظمة التحرير عنه في فتح، بل لعلّه أصعب قليلاً.

الخطأُ والامتحانُ الأكبرُ كان ألاّ تتحمّل السلطةُ و«فتح» فوزَ حماس المُستَحَقَّ في الانتخابات، من الناحية العمليّة. بل كان هذا ميدانًا لقبول الدغدغة الدوليّة والعربيّة التي شَجّعتْ مثلَ هذا الموقف وأغرت به. هذه التجربة هي الفرصة الضائعة الكبرى التي لن يكون سهلاً مراجعتُها وتلافيها، ولن تكفي مجزرةُ غزّة لذلك أيضًا.

والنتيجة الطبيعيّة هي الفراغُ وضعفُ الروح الكفاحيّة عند القيادات. ومن الطبيعيّ أن ينتقل ذلك بشدة إلى «القواعد،» ليصبح الفردُ في إطار سياسيّ آخر مساويًا في نشاطه وعزيمته وكفاءته لعدّةِ أفرادٍ في دائرة السلطة الواسعة العريضة.

مثلُ هذا الفراغ والضعف هو ما أتاح للقوى الأكثر راديكاليّةً ودأبًا وجديّةً أن تبرز، بما تستحقّه، أو بما لا تستحقّه، من الناحية الحسابيّة قبل النوعيّة.

❖ ❖ ❖

الآن، نحن أمام العدوان والمجزرة واستفحالِ نتائج الحصار حتى حدود الحالة الصوماليّة، بل ربّما أشدّ وأصعب. ودرجةُ متابعة المسألة لا توحي بمخرج يؤمّن أهلَ غزة ويحميهم من مثل هذا المصير. وما تزال السياسة غائبة ومنكفئة على الأرض.

قيادة حماس تُقْسم الأيمانَ المغلّظةَ بأنها انتصرت. وإسرائيل تقول إنها حقّقتْ أهدافها. وأهلُ غزّة يموتون.

في الأهداف المباشرة، يُقال إنّ الأهداف الإسرائيليّة تتركّز على وقف إطلاق الصواريخ وتسرُّبِ السلاح والذخائر عبر أنفاق رفح. ومن الأهداف الأخرى: إضعافُ حكومة غزّة أو إنهاؤها، وإطلاقُ الجنديّ الإسرائيليّ الأسير، وتمهيدُ الوضع لقيام حالةٍ أقلّ ضررًا بإسرائيل. وهذا، يقول البعض أيضًا، لن يكون.

وحين يجري الحديثُ عن الخسائر، يُقال إنّ «العدّ التصاعديّ» للخسائر الإسرائيليّة قد بدأ، وأنّ الخسائر الغزّاويّة الهائلة ما هي إلاّ قربانٌ للحريّة والشهادة وطريقٌ للفردوس. وفي ذلك أخطرُ المضامين وأشدُّها ضررًا، لأنه موافقةٌ طوعيّةٌ على عنصريّة الإسرائيليين وبعض الغرب، وعلى نظرتهم المزدرية بحقّ الحياة والحريّة والمساواة. فكأنما موتُ إسرائيليٍّ واحدٍ مقابلَ مائة فلسطينيّ معادلةٌ صحيحةٌ ورابحة (يقول البعض: ذلك لأنّ موت اليهوديّ أو أسْره مسألةٌ بالغةُ الحساسيّة لجماعته!).

كما تَبرز الأفكارُ التي تخْدم الاعترافَ بحماس ناطقًا باسم القضيّة الفلسطينيّة؛ وهنا خطرٌ جديد. فلقد تقدّمت القضيّة الفلسطينيّة شوطًا كبيرًا في السبعينيّات حين أقرّ العرب ـ وبخاصةٍ المصريّون الذين كانوا يديرون غزّة، والأردنيّون الذين كانت الضفّةُ جزءًا من مملكتهم ـ بأنّ منظمة التحرير هي الممثّل الشرعيّ الوحيد للفلسطينيين. وسوف يَدْفع العربُ والفلسطينيون كثيرًا مقابلَ تحوّل طرف (واحد) ـ ولو كان حماس ـ إلى ممثّل للقضيّة والشعب: فهذه مغامرةٌ سياسيّةٌ غيرُ محدودة العواقب، وعلى حماس وعلى مَنْ يغريها بذلك أن يراجعَ حساباتِه فيها، ولا يتورّطَ أكثرَ في هذا الاتجاه. ولا يعني هذا استخفافًا بقوّة حماس وقدراتها، ولا بروحها الكفاحيّة، ولا بتضحياتها من أجل فلسطين. بل إن كلّ نجاح تحقّقه، في القضيّة المحدّدة الاتجاه، لا بالأهداف العابرة، هو نجاح ليس للفلسطينيين وحدهم، بل للعرب جميعًا. لكنّ هنالك مغامرةً كبيرةً قد يَخْسر الفلسطينيون فيها حلمَ الدولة الفلسطينيّة المستقلّة، التي يقول بعضُ العالم إنهم أثبتوا أنهم غيرُ أهلٍ له، ويقول بعضُنا إنّ ذلك مكسبٌ وربحٌ عميمٌ لهم يعيدهم إلى هدف تحرير فلسطين من النهر إلى البحر. وهذا قد يكون هدفًا عميقًا للعدوان، يختفي خلف الأهداف المعلنة.

رغم كلّ ذلك، يبقى الأمرَ الملحَّ الآن هو وقفُ المجزرة، وتنكّبُ طريق الحوار والوحدة، وإنقاذُ ما يمكن إنقاذُه. عندئذٍ سوف نتحدث أيضًا عن الانتصار.. ونَزيد.

**دمشق**

**موفّق نيربيّة**

كاتب من سوريا.